البحث العلمي في الدعوة والإعلام

مقاربة نقدية لبحوث الماجستير

د. بوعلي نصير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

إرتبط البحث العلمي قديما وحديثا بالبحث عن الحقيقة أو ما يسمى بالحقيقة . والوصول إلى هذه الحقيقة لا يتم إلا بمدى إرتباط البحث بالمنهج .فالبحث العلمي على حد قول أحمد بدر يدور مع المنهج وجودا وعدما ، صدقا وزيفا[1] . إن المعرفة العلمية جاءت في مرحلة متأخرة من تطور العقل الإنساني ونضجه حيث إستطاع الإنسان أن يتجاوز المراحل السابقة (المعرفة الحسية ، والمعرفة النقلية والمعرفة الفلسفية) وأن يفسر الظواهر تفسيرا علميا (المعرفة العلمية) يربط به تلك الظواهر ربطا موضوعيا . هذا النوع من المعرفة العلمية التجريبية التي تقوم على اساس الملاحظة المنظمة المقصودة للظواهر وعلى أساس وضع الفروض الملائمة والتحقق منها بالتجربة وتجميع البيانات وتحليلها [2].

إن الغرض من هذه الدراسة ليس المعرفة العلمية التي تبنى على أساس التجربة المادية في العلوم البحثه أو الطبيعية ، وإنما الغرض من هذه الدراسة تبيان خصائص المعرفة في العلوم الإسلامية إذا إعتبرنا أنها جزء من العلوم الإجتماعية . مع الإشارة أن المنهج الإستنباطي أثبت جدارته منذ القدم في حقول المعرفة الإسلامية .ولقد أستخدم عبر التاريخ " المنطق " بغرض الإستنتاج العقلي لكثير من الأشياء بناء على معارفنا وتعميماتنا نفسها ، على إعتبار أن الطريقة المنطقية خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى الأساليب التي يطوربها

الإنسان طريقة تعلمه ومعارفه من الأشياء الجديدة . وتخطو العلوم الإسلامية في وقتنا الراهن خطوات عملاقة في مجال إستخدام أساليب البحوث التطبيقية كأعتمادها على مناهج وأدوات العلوم أخرى ، أو بمعنى أدق الولوج نحو الإستقراء في الدراسات الشرعية أو الإسلامية . وهي نفس التجربة التي عاشتها العلوم الإنسانية والإجتماعية منتصف القرن العشرين عندما لجأت إلى المناهج التطبيقية والتشخصية من العلوم البحتة والحيوية لدراسة الظواهر الإجتماعية المعقدة ، وإلى وقت قريب كانت العلوم الإسلامية علوم نقلية تعتمد على التعميمات الناتجة على الخبرة أو الأخذ من أهل الثقة (من المتقدمين أو المتأخرين) في تفسير الظواهر الدينية ، ويتميز هذا النوع من المعرفة النقلية بأن يقوم الباحثون بإقتباس بعض ما كتبه " أهل الثقة " في المجالات المختلفة ، وغالبا ما يكون ،كما يقول أحمد بدر هؤلاء مخطئين في بعض أو في كل ما قالوه ، ولكن آراءهم تذكر عادة بشكل يتسم بالثقة والإطمئنان والقوة .

لقد أعتمد الإنسان منذ قديم الزمان على بعض مصادر الثقة كالكهنة أو الحكماء في فهم وتعليل بعض الظواهر وربما أدى هذا الإعتماد على مصادر الثقة إلى الإعتقاد بأن المفكرين الكبار القدامى قادرون على اكتشاف الحقيقة في كل العصور وأن الإنسان يستطيع أن يتعلم عن نفسه وعن عالمه الذي حوله بدراسة كتابات هؤلاء المفكرين القدامى فقط . والحاصل في نهاية الأمر أن المعرفة النقلية ليست هي كل شئ ، إذا أن المعرفة الحديثة أنواع ومنها الفلسفية والعلمية ، وهذه الإخيرة التي تعتمد على الخطوات المعروفة في البحث العلمي المتمثلة في الملاحظة والإشكالية والفرضية والمفاهيم والقياس والنتيجة . وقد أصبح الباحثون في الحقول الإسلامية يعتمدون في ابحاثهم نفس هذه الخطوات في تقصي الحقائق كدراسة الشخصيات الدينية أو بعض الظواهر المرتبطة بالأديان السماوية وتكون الدراسات هنا من منطلق أنتروبولوجي ثقافي أي دراسة الظاهرة الدينية من زاوية المداخل الثقافية على غرار دراسات محمد نبيل

السمالوطي عن المجتمع والظاهرة الدينية أو كتابات محمد حافظ ذياب عن الخطاب الإسلامي والإيديولوجيا من خلال شخصية السيد قطب وتتضح هذه المناهج الإستقرائية من خلال الكتابات الكثيرة لشكيب أرسلان عندما وضع الإشكالية الرئيسية " لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون ؟ " وهذه الإشكالية التي كانت حافزا لعدد معتبر من الكتابات تحمل البصمة الإستشرافية فيه ولو بطريقة غير مباشرة . وتبدو هذه البصمة حاضرة تقريبا في كل كتابات المفكر مالك بن نبي عن الحضارة والمجتمع الإسلامي . كما تتضح هذه الإشكالية في الكتابات المعاصرة الخاصة بالأصالة والمعاصرة ، الأصيل والدخيل ، التراث والموروث وهكذا ...

أولا – البحث العلمي : حالة جامعة الأمير عبد القادر

إن معاينة البحث العلمي في العلوم الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر ومقاربته بنوع من النظرة المتأنية تتطلب إدخال المتغيرات التالية في عملية التحصيل : التاريخ، مكانة الباحث الذي ينتج هذه المعرفة العلمية في العلوم الإسلامية بالمحيط الثقافي والإجتماعي للمجتمع الذي نتواجد فيه وننتمي إليه ، وبسلم الأولويات في مجال البحث ، والوسائل القائمة في إنتاج هذه المعرفة ونشرها ، الطرف أو الأطراف المتلقية أو المتفاعلة مع هذا المنتوج ، علاقة ذلك بالنظام الإجتماعي والسياسي علاقة ذلك بالمحيط الدولي والحضاري . ومثل هذه المعالجة تتطلب عدّة أبحاث جادة تخرج عن الإطار المشكل لهذه الدراسة . وبعيدا عن كل هذه السياقات سنحاول تسليط بعض الضوء على واقع البحث العلمي بقسم الدعوة والإعلام والإتصال من زواية أن هذا التخصص يجاور فيه الطلبة الباحثون بين العلوم الدعوية (وهي من العلوم الإسلامية) وأساليب الإعلام والإتصال (وهي من العلوم الإجتماعية) . ولا بأس من إستعراض بعض الأسس التي يقوم عليها البحث العلمي بجامعة الأمير عبد القادر . تأسيس نظام الدراسات العليا بهذه الجامعة ابتداءا من أواخر الثمانينيات ويهدف البحث

العلمي إلى تحقيق جملة من الأهداف منها : تكوين الطلبة تكوينا إسلاميا علميا، نشر الروح العلمية ، إعداد الأبحاث والدراسات الأكاديمية ، حفظ المخطوطات وتحقيقها ، فتح باب التعاون مع الجامعات والمراكز والمواقع العلمية [3] الخ .

1- الماجستير بقسم الدعوة والإعلام : بعض الأرقام :

وصل عدد المسجلين فيما بعد التدرج الأولى (ماجستير) بقسم الدعوة والإعلام والإتصال إلى غاية الموسم الجامعي 2007 م إلى 82 طالبا ، وهذا العدد يوحي بحداثة التجربة في مجال البحث العلمي في هذه الجامعة الفتية التي تأسست في عام 1984 م . وقد وصل عدد المناقشين لرسائل ومذكرات الماجستير بنفس القسم 64 طالبا إلى غاية نفس الفترة . ومعنى هذا أن أغلب الطلبة المسجلين (78%) ناقشوا أطروحاتهم سواء في الوقت المحدد أو متأخرين بقليل .

وصلت نسبة الطلبة الذكور المناقشين بالقسم أزيد من 54 % مقابل 45% للإناث ويلاحظ أن وتيرة الإناث المناقشات في تزايد مستمر مقارنة بالذكور بداية من الموسم الجامعي 2003/2002 م وتتضح هذه النتيجة من خلال معطيات الجدول رقم : 02 . ومن المحاور الكبرى للبحث العلمي على مستوى قسم الدعوة والإعلام والإتصال هو إحداث نوع من التجاور المتفاعل بين هذه التخصصات حتى تنصهر في تخصص واحد يؤدي وظيفة " البلاغ المبين" ونجد عند معاينة رسائل ومذكرات الماجستير بهذا القسم وفق دائرة اهتمام الطلبة أن 40,6 % من هذه الأبحاث حول الدعوة بينما 32,8 % عبارة عن أبحاث في علوم الإعلام . ونجد 23,4 % منها عبارة عن بحوث في الإعلام الإسلامي [13,3 % إعلام ديني (تحليل محتوى الخطاب الديني في وسائل الإعلام) 40% اتصال دعوى (كالنماذج الإتصالية والبلاغية للإمام) 46,6 %

إعلام ديني تراثي (وسائل وأساليب الإتصال في عهد النبوة والخلافة الراشدة)] (أنظر الجدول رقم 03)

وتعكس هذه النتائج حقيقة واضحة مفادها أن ثلث الطلبة الباحثين في قسم الدعوةوالإعلام والاتصال لهم إهتمام دعوى والثلث الثاني لهم إهتمام إعلامي صرف ، بينما الثلث المتبقي يربط بين الوسيلة والرسالة أو بين الوسيلة الإعلامية والغاية الدعوية ضمن تخصص الإعلام الإسلامي . وينطلق هؤلاء الطلبة من القاعدة العامة بأن للإعلام مرجعية ومرتكز ومركز رؤية ، ويستحيل أن تبتعد أو تحيد هذه الخلفية عن الممارسة الإعلامية .

2-التقارب أو التباعد بين البحث والمحيط :

يبدو أن هناك ضرورة للعودة إلى العديد من الأصول الفكرية الوطنية والحضارية التي أنتجها وأفرزها المجتمع الذي نتواجد فيه والحضارة الإسلامية عامة . يقول الكاتب الجزائري محمد العربي ولد خليفة في مقالة نشرت في جريدة الشعب :" إن الإلتزام الوحيد المطلوب في هذا السياق هو الإلتزام بأخلاقيات البحث العلمي وفي مقدمتها الضمير الوطني . فلا عالمية للبحث العلمي ولا منهجية له إذا خلا من العلمية ومن الغيرة الوطنية والإنتماء الحضاري التي بدونها يفقد العلم لونه ومذاقه ويتحول إلا أكداس من الوقائع والأرقام والأسماء تعني كل شئ ولا تعني شيئا على الإطلاق "[4]

إن معاينة بسيطة (ولوكمية) في علاقة هذه الرسائل والمذكرات المنجزة على مستوى القسم وعلاقتها بالمحيط الوطني والبعد الحضاري ، يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات عن علاقة هذه البحوث بالمحيط ومن ثمة أسئلة عن كيفية بروز البعد الحضاري فيها . إن أزيد من 45% من البحوث المنجزة على مستوى القسم ترتبط جزئيا بالمحيط الجزائري ماضيا وحاضرا ، وهذه في حد ذاتها ملاحظة إيجابية ، 18.75 % من هذه البحوث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة الشيخين عبد الحميد ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي ،

26,5 % عن الجزائر الراهنة 7,8 % من هذه البحوث خاص بالفترة الذهبية للإسلام (أنظر الجدول رقم 04)

إن القراءة الأولية لهذه الأرقام توحي بأن هناك تضخما كبيرا في المواضيع الخاصة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ويتضح أن إهتمامت الطلبة الباحثين منصب مثلا على صحيفتي المنتقد والبصائر بشكل معتبر في غياب شبه تام لصحف ووسائل إعلامية أخرى كانت تابعة لجمعية العلماء أو للشيخ عبد الحميد ابن باديس ، أو لرفقاء الشيخ المعروفون بدورهم الديني والإصلاحي في ذاك الوقت . فلا أثر لدراسة واحدة عن الصحف الآتية : السنة، الشريعة والسراط ، وهي من أقصر جرائد الجمعية عمرا ، كما لا توجد ولا دراسة واحدة عن صحف جمعية العلماء الناطقة باللغة الفرنسية كصحيفتي (la défense) و (le jeune musulman) . بالإضافة إلى ذلك يلاحظ غياب تام في بحوث الماجستير لصحف أبي اليقظان : البستان ، النبراس ، الأمة والفرقان إلخ . وقد كانت هذه الصحف رائدة في مجال الإصلاح الإجتماعي في الأربيعينيات من القرن العشرين .

تحتل شخصية عبد الحميد ابن باديس (كموضوع دراسة) الريادة في هذه البحوث ، يليه مباشرة شخصية محمد البشير الإبراهيمي في المرتبة الثانية ، وتأتي هاتين الشخصيتين في قائمة الأولويات بالنسبة لإهتمامت الطلبة في الدعوة والإعلام ، تأتي شخصية مالك بن نبي في المرتبة الثالثة حيث عولجت في أطروحتين الأولى عن التجديد لدى مالك بن نبي والثانية مقارنة مع وحيد الدين خان ، وتأتي شخصية بيوض وباعزيز بن عمر في دراسة واحدة لكل منهما . ونلاحظ – على العموم – ندرة في البحوث التي تخص الشخصيات الدينية والوطنية التي كانت في نفس الفترة أو تلك التي كانت تنتمي إلى جمعية العلماء ، كشخصية العربي التبسي ، مبارك الميلي ، الطيب العقبي ، محمد العيد آل الخليفة وغيرهم .

ما يلاحظ على بحوث الماجستير (والدكتوراة أيضا) بقسم الدعوة والإعلام أن هناك نزعة مركزية (بلغة الإحصاء) اتجاه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مما ولد في النهاية تضخم كبير وأدى إلى نوع من الإجترار والتكرار إلى درجة تشابه الكثير من عناوين الأطروحات.

3-مناهج البحث وعلاقتها ببحوث الدعوة والإعلام :

لا يتفق المشتغلون على تصنيفات محددة لمناهج البحث ، ويرجع ذلك ربما إلى تبني بعضهم لمناهج نموذجية رئيسية وإعتبار المناهج الآخرى جزئية متفرعة من المناهج النموذجية ، كما يعتبر هؤلاء أوغيرهم ، بعض المناهج مجرد أدوات أو أنواع للبحث وليست مناهج . وقس على ذلك الخلط المعروف بين أساليب البحث ومداخله وهكذا ...

ونعتمد نحن في هذه الدراسة تصنيف أحمد بدر للمناهج من خلال كتابه المصدر: أصول البحث العلمي ومناهجه حيث يصنف مناهج البحث العلمي كالآتي : المنهج الوثائقي ' يسمى أيضا المنهج التاريخي أو الإستردادي) ؛المنهج التجريبي ؛ منهج المسح ؛ منهج دراسة الحالة ؛ تحليل المضمون (يعتبره الكاتب أداة) . ونرى أن هذا التصنيف هو الأحسن بالمقارنة مع التصنيفات الأخرى ، ويمكن أن نضيف إلى هذه المناهج مناهج أخرى ، نعتبرها أساليب : كاسلوب المقارنة ، والمقاربة الإستشرافية (البعدية) .

ما مدى توفر هذه المناهج والأدوات والمقاربات في بحوث الماجستير بقسم الدعوة والإعلام والإتصال وهل هذه البحوث يراعى فيها الطلبة الإلتزام بالمناهج أم أنها مجرد بحوث نظرية لا أكثر ولا اقل ؟

ويتضح من خلال المعاينة البسيطة أن معظم بحوث الطلبة على مستوى الماجيستير يعتمد فيها على المقاربات المنهجية (les approches) ، أو أن هذه الدراسات قد تتوفر على سياق منهجي (وهي قليلة) أولا تتوفر على الإطلاق ومن ذلك فهي بحوث نظرية فـ 42,18 % من هذه البحوث عبارة عن دراسات

نظرية عامة ، 53% عبارة عن دراسات وصفية مسحية 32,8 % تصب في تحليل المحتوى ، 18,7 % عن دراسات الجمهور ، 1,5 % منهج تاريخي و 1,5 % منهج مقارن ، بينما تندر الدراسات الخاصة بالمنهج التجريبي (يستخدم في العلوم الطبيعية وعلم النفس أكثر) والمنهج المستقبلي الإستشراقي. وما يمكن إستنتاجه أن المذكرات أو الرسائل الخاصة بالإعلام يتوفر فيها إلى حد ما المنهج والأدوات وطرق العد والقياس وهي في معظمها دراسات إما تطبيقية (من خلال تحليل المضمون) أو ميدانه (من خلال دراسة الجمهور المتلقي) . عكس البحوث الخاصة بالدعوة التي يميل فيها الطلبة إلى الجوانب النظرية أو المعرفة التراكمية الخاصة بالموضوع المدروس ،ويمكن من باب النزاهة أن نشير هنا إلى بعض الاستثناءات في هذا المجال (أنظر الجدول رقم 05)

ملاحق :

جدول رقم 02

عدد المناقشين لرسائل ومذكرات الماجستير بقسم الدعوة والإعلام حسب الجنس

العدد / النوع	الذكور	الإناث	الإجمالي
العدد	35	29	64
النسبة	(%54,6)	(%45,3)	(%100)

جدول رقم 03

تصنيف رسائل الماجيستير التي نوقشت بقسم الدعوة والإعلام حسب محاور إهتمام الباحثين

الدعوة	الدعوة والإعلام*	الإعلام العام	الإعلام الإسلامي		
			الإعلام الديني	التراث	الخطاب
26	02	21	15 (%23,4)		
(%40,6)	(%03,1)	(%32,8)	02 (%13,3)	07 (%46,6)	06 (%40)

* رسالة الطالب عيسى بوعافية:"الدعوة الإسلامية عبر الأنترنيت" ورسالة الطالب كمال العريبي :" الدور الإتصالي للإمام". وهاتين الرسالتين يجاور فيهما الطالبان بين الدعوة والإعلام.

جدول رقم 04

تصنيف رسائل ومذكرات الماجيستير بقسم الدعوة والإعلام حسب متغير المحيط.

المحيط الثقافي والاجتماعي للجزائر		الفترة الذهبية للإسلام	الشخصيات الدينية غير الجزائرية	مواضيع عامة
جمعية العلماء	الجزائر الحاضرة			
12 (%18,75)	17 (%26,5)	05 (%7,8)	06 (%9,37)	24 (%37,5)
(%45,31)		(%54,68)		

جدول رقم 05

رسائل ومذكرات قسم الدعوة والإعلام والإتصال

حسب المنهج المعتمد فيها

المنهج التاريخي	المنهج التجريبي	المنهج المقارن	منهج دراسة الحالة	المنهج الإستشراقي	بحوث نظرية عامة	منهج المسح الوصفي		
						تحليل المحتوى	دراسة الجمهور	تحليلة / ميدانية
01	00	01	01	00	27	21	12	01
(%1,5)	(%00)	%1,5	(%1,5)	(%00)	(42,18 %)	(%32,81)	(%18,75)	(%1,5)
						(%53,12)		

الهوامش:

[1] - أحمد بدر ، أصول البحث العلمي ومناهجه ، وكالة المطبوعات الجامعية ، الكويت ، ط:6 ، 1982 ، ص : 15

[2] - أحمد بدر ، نفس المرجع السابق ، ص : 16

[3] - دليل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، 2003 م

[4] - محمد العربي ولد خليفة ، ملاحظات أولية حول آراء المدرسة الجزائرية ، الشعب : 1987/02/26 ، في عزي عبد الرحمن المرجع السابق ، ص : 24